عمان البلقاء في نهاية الفترة المملوكية وبداية الفترة العثمانية، في ضوء أعمال التنقيب لموقع أم زويتينة

باسم المحاميد و هنادي الطاهر

توطئة

يتناول هذا البحث دراسة أولية للملامح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمنطقة شرق الأردن عموماً ومنطقة عمان البلقاء خصوصاً ما بين نهاية الفترة المملوكية وبداية العصر العثماني في محاولة للتعرف على الأسباب التي أدت إلى ازدهار المنطقة في الفترة المملوكية ومن ثم تراجعها في الفترة العثمانية وذلك في ضوء نتائج الحفريات الأثرية وتحليل الشواهد المعمارية التي عثر عليها في موقع أم زويتينة الأثري في منطقة الجبيهة شمال عمان.

ومعرفة هل كان هذا التراجع في الاستيطان وليداً لأحداث جرت بداية القرن السادس عشر مع سيطرة العثمانيين على المنطقة بعد انتصارهم في معركة مرج دابق عام (١٥١٦م) التي جرت أحداثها بين السلطان العثماني سليم الأول وبين السلطان المملوكي قنصوه الغوري وهل كان لهذه السيطرة العثمانية دور في تراجع الاستيطان في المنطقة أم أن هذا التراجع في الاستيطان حدث نتيجة لسلسلة من الأحداث السياسية والاقتصادية سبقت دخول العثمانيين إلى المنطقة وذلك من خلال الشواهد المعمارية التي عثر عليها أثناء أعمال التنقيب.

الموقع

تقع خربة أم زويتينة ضمن أراضي قرية أم زويتينة حوض ٣ ظهر العين، من أراضي منطقة الجبيهة إلى الشمال من وزارة التعليم العالي، وعلى بعد حوالي ٧٠٠م إلى الشمال الغربي من دوار المنهل على الطريق الجديد الذي يربط منطقة الجبيهة بمنطقة أبو نصير، وضمن الإحداثيات N 32.03484 E 35.88378 وترتفع حوالي ١٠٠٠م عن مستوى سطح البحر. ومن الملاحظ أن منطقة أم زويتينة ذات موقع متوسط بين عمان وجرش على مسافة ليست ببعيدة عن الطريق الروماني الذي كان يربط فيلادلفيا (عمان) بجرش (**الشكل ١**).

التسمية: دلالات ومعاني

اسم الموقع «أم زويتينة»، وزويتينة تصغير زيتونة وهي «شجرة مثمرة وثمرها يستخرج منه الزيت» (نصير ٢٠١٠: ٣٧١).

ظهر العين وهو اسم الحوض الذي تتبع له أراضي أم زويتينة «ما غلظ من الأرض، والعين ينبوع الماء» (نصير ٢٠١٠: ٣٧١)، أما منطقة الجبيهة فقد جاءت من الجبهة «ما بين الحاجبين إلى الناصية،

١. موقع أم زويتينة، صورة جوية.

وجبهة القوم سيدهم» (نصير ٢٠١٠: ٣٧٢).

من خلال دراسة تحليلية بسيطة لدلالة التسمية وطبيعة المنطقة الجغرافية نلاحظ أن الموقع قد اكتسب التسمية من خلال الطبيعة الجغرافية للمنطقة، حيث تنتشر فيها مصادر مياه غزيره ومتعددة، ويذكر بعض السكان المحليين أنه كان يوجد حوالي أربعة ينابيع في هذه المنطقة. ويمكن ملاحظة شجيرات الطيّون الكثيفة وهذه الشجيرات تكثر عند مصادر المياه.

كما يمكن ملاحظة الطبيعة الجبلية الوعرة والتي ترتفع حوالي ١٠٠٠م عن سطح البحر وهي ذات أمطار غزيرة تصلح لزراعة الأشجار المثمرة، ومن المعتقد أن التسمية أم زويتينة جاءت لكثافة زراعة أشجار الزيتون في المنطقة.

وهنا يمكن ملاحظة دلالة الاسم الجغرافي في تفسير الموقع وما يدل عليه من طبيعة الاستخدام.

الدراسة المعمارية الأولية لموقع أم زويتينة

من خلال أعمال التنقيب في الموقع ظهرت ثلاث طبقات أثرية تمثل ثلاث مراحل من الاستيطان تعود إلى العصر المملوكي وبداية العثماني (**الشكل ٢**)، من الأقدم إلى الأحدث:

المرحلة الأولى: بداية القرن الرابع عشر الميلادي

وهي المرحلة الأقدم من الاستيطان المملوكي، فقد كشفت أعمال التنقيبات الأثرية عن وجود مبنى مكون من غرفتين مشتركتين بجدار بسماكة حوالي (١م) يحمل سقفاً نصف برميلي ويستند على الجدار الأوسط ويغطي الغرفتين مشكلاً قبوين متجاورين (**الشكل ٣**).

حيث أن هذا النظام المعماري وهو ما يعرف بنظام الأقبية شائع بشكل كبير في منطقة الأردن في فترة القرن الرابع عشر ويمكن مشاهدة هذا النظام المعماري في ذيبان وحسبان وجلول والدير في الفحيص والسلط والبحاث.

إن النمط المعماري المتبع في البناء الذي يشكل مجموعة من البيوت ذات تقسيمات هندسية منظمة يدل على استقرار ساكني البيوت ويعكس حالة الاستقرار السياسي والأمني التي تعيشها المنطقة في تلك الفترة، ومن خلال البحث في المصادر التاريخية نلاحظ أن منطقة عمان في هذه المرحلة شهدت ازدهاراً معمارياً ونشاطاً سكانياً كثيفاً.

تعتبر الفترة المملوكية من الفترات التاريخية التي تناولها بالدراسة الكثير من المؤرخين المعاصرين للفترة المملوكية إضافة إلى المؤرخين المحدثين من كافة نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لما شهدته هذه الفترة من أحداث هامة وفرت للباحثين والمؤرخين مادة تاريخية غنية، وذلك لكثرة التفاصيل التي يمكن الحديث عنها، كالصراعات والحروب مثل الحروب الصليبية ودخول المغول إلى المنطقة وحالة عدم الاستقرار السياسي في منطقة بلاد الشام، والذي أدى إلى هجرة عدد كبير من السكان من مناطق الصراع في سوريا والعراق والساحل الفلسطيني والاستيطان في منطقة شرق الأردن عموماً ومنطقة عمان البلقاء خصوصاً، والدليل على ذلك كثرة المواقع الأثرية التي تؤرخ إلى هذه الفترة، أو إعادة استخدام بعض المواقع الأثرية التي تعود إلى فترات أقدم، وخاصة مناطق الاستطلاع العسكري كمواقع العصر الحديدي الثاني حيث أن الظروف السياسية

٢. منظر عام لأعمال التنقيب في الموقع.

٣. نظام الأقبية المتبع في الفترة المملوكية.

تقريباً متشابهه بين العصرين المملوكي والحديدي الثاني. فقد دلت المسوحات الأثرية التي جرت في منطقة عمان البلقاء على اتساع الاستيطان في العصر المملوكي وتطور بعض الصناعات والحركة التجارية، وكذلك كشفت الحفريات الأثرية عن وجود مبانٍ إدارية ودينية منتشرة في المنطقة تدل على هذا النشاط واهتمام المماليك بالمنطقة، ففي حسبان عثر على قصر يعرف باسم قصر الحاكم المملوكي وحمام ومدرسة، وفي منطقة البحاث غرب عمان عثر على قصر يؤرخ إلى هذه الفترة وهذا دليل على وجود نظام اجتماعي وسياسي وإداري خلال حكم المماليك في القرن الرابع عشر في منطقة شرق الأردن.

وهنا بعض الأسباب التي أدت إلى ازدهار منطقة شرق الأردن خلال حكم المماليك :

١- العمق الجغرافي الاستراتيجي، أدى إلى بناء القلاع والتحصينات العسكرية، وتطور البريد وطرق المواصلات وطرق الحج لأن المنطقة بقيت تحت سيطرة الدولة المملوكية، ولم يتم السيطرة عليها بشكل كامل من قبل الصليبيين أو المغول، وحرصاً من الدولة المملوكية على الاستقرار السياسي في المنطقة التي أصبحت تشكل العمق الاستراتيجي، ونقطة وصل بين مصر والشام، عمدت الدولة المملوكية إلى الدخول في أحلاف عسكرية مع القوى المحلية والعشائر البدوية.

٢- الهجرات السكانية باتجاه منطقة شرق الأردن التي أصبحت ملاذاً آمناً لكافة المهاجرين والفارين من الحروب من مناطق العراق والشام وفلسطين.

٣- شكلت منطقة شرق الأردن سلة غذاء للدولة المملوكية والجيش، فتطورت بعض الصناعات مثل صناعة السكر والصابون في غور الأردن وصناعة النيل في غور الصافي وصناعة الحديد في عجلون وخربة الدير في منطقة الفحيص، والكبريت الأبيض والقار من البحر الميت وأصبحت مناطق الأردن كذلك المصدر الأكبر لتزويد الدولة المملوكية بالغلال (غوانمة ١٩٧٩).

٤- النشاط الفكري والثقافي، الذي نتج عن الاستقرار السياسي والأمني لهذه المنطقة خلال العصر المملوكي، وليس أدل على ذلك من انتشار المدارس مثل مدرسة حسبان المملوكية، والمدرسة الشافعية في الكرك، والمدرسة اليقينية في عجلون، ومدرسة صرغتمش في عمان والتي تؤرخ إلى مرحلة متأخرة من حكم الدولة المملوكية ١٣٥٦م. وكذلك انتشار بعض المنشآت المدنية ذات المنافع العامة مثل البيمارستانات (غوانمة ١٩٧٩).

المرحلة الثانية - بداية القرن الخامس عشر الميلادي

تمثلت هذه المرحلة بإعادة استخدام المباني التي تؤرخ إلى القرن الرابع عشر الميلادي، فقد دلت أعمال التنقيب في هذه المرحلة على أن هنالك تراجعاً واضحاً في الأنماط المعمارية من حيث صغر مساحات الغرف، وتغيراً في نظام التسقيف المتبع في المرحلة الأولى ليتحول من نظام الأقبية إلى نظام الأقواس وكذلك عدم استخدام المادة الرابطة، مما أدى إلى تراجع في متانة البناء، حيث من الصعوبة تحديد مبنى واحد بمنهج معماري نستطيع التعرف عليه، وعثر على الكثير من الحجارة المتساقطة التي أعيد استخدامها لبناء غرف جديدة ولكن بشكل مختصر. ويبدو من تقسيمات الغرف أن حظائر الحيوانات أصبحت جزءاً من هذه الغرف (**الشكل ٤**) مما يدعو إلى الاعتقاد أن السكان غير آمنين على ترك الماشية خارج حدود المنزل، وهذا يشكل بداية الانهيار في النظام الأمني.

٤. حظائر الحيوانات داخل البيوت التي تعود إلى المرحلة الثانية من الاستيطان.

المرحلة الثالثة- القرن السادس عشر الميلادي (بداية الفترة العثمانية)

من خلال أعمال التنقيب في الطبقة السطحية لوحظ وجود نمطين معماريين:

- النمط الأول عبارة عن جدران طولية ليس لها أية صفة معمارية واضحة، تتكون من مدماكين وصفين من الحجارة وبأطوال مختلفة وجدت في الطبقة السطحية (top soil).
- النمط الثاني عبارة عن غرف دائرية الشكل مكونة جدرانها من حجارة كبيرة نسبياً مبنية من صف واحد ومدماك واحد من الحجارة (**الشكل ٥**).

ومن هنا كان لا بد من التوقف عند النمط المعماري الدائري وهو نمط بسيط جداً ولكن وجوده في هذه الطبقة وطريقة البناء في هذه الفترة يعتبر غريباً نوعاً ما، ويمكننا هنا إبراز مجموعة من الملاحظات على هذه المرحلة:

١- أن مثل هذه الجدران الدائرية التي لا تحوي أي مظاهر أو شواهد لوجود أبواب ومداخل يمكن الاستنتاج أن هذه الجدران لا تحمل سقفاً ثقيلاً بل وجدت لحمل سقف خفيف مثل القماش أو القش وهذا يدعم فكرة الاستيطان المؤقت قبل مرحلة هجران الموقع.

٢- من خلال دراسة هذه الأنماط المعمارية وطريقة البناء يمكن القول أن هذه الأنماط المعمارية جاءت بسبب أن الاستيطان في موقع أم زويتينة أصبح استيطاناً موسمياً أو استيطاناً مؤقتاً وعليه تكون هذه المرحلة هي الأخيرة من مراحل الاستيطان في الموقع.

٣- من خلال البحث في الفترات التراثية تبين أن مثل هذه الأنماط من البناء لا زال يستخدم إلى الآن أثناء فترات الحصاد وجمع

٥. النمط المعماري الدائري.

الثمار وأن البناء الدائري الذي يحمل السقف الخفيف يعرف إلى الآن باسم القصر وهو يستخدم من قبل مالك الأرض عند إشرافه على الحصاد.

٤- من خلال الدراسة الأولية للفخار المكتشف في الطبقات الثلاث التي تمثل ثلاث مراحل من الاستيطان في الموقع والتي أُرِّخَت جميعها في البداية إلى العصر المملوكي وذلك لأن جميع الكسر الفخارية متشابهة من حيث الزخارف والشكل، إلا أنه لوحظ وجود كسر صغيرة من الغليون العثماني، والكثير من الفخار المعروف باسم (Elephant handle) في الطبقة الأحدث وهي الطبقة السطحية وهذا يدل على أن تقنية صناعة الفخار في العصر المملوكي وبداية العصر العثماني كانت تقريباً متشابهة.

وهنا لا بد من الحديث عن دخول العثمانيين إلى منطقة بلاد الشام ثم منطقة مصر وإنهاء حكم المماليك كلياً عام ١٥١٧م بعد هزيمة آخر سلاطين المماليك طومان باي الذي أدى بدوره إلى وضع البلاد العربية تحت الحكم العثماني المباشر ولكن منطقة سوريا الجغرافية تمتعت بحكم ذاتي من خلال تعيين السلطان العثماني والياً عليها وهو الوالي جان بردي الغزالي ولكن بعد وفاة السلطان سليم الأول أعلن الغزالي انفصال بلاد الشام عن الباب العالي وهنا أرسل العثمانيون جيشاً لم يكن للغزالي قدرة على مواجهته فاستسلم وأعدم، وبالتالي أصبحت بلاد الشام تحت إدارة الولاية العثمانية وتبعت مباشرة للباب العالي. بعد السيطرة العثمانية على بلاد الشام أعيد تقسيم بلاد الشام إلى مناطق ثلاث تعرف باسم السناجق أو الولايات؛ وهي ولاية دمشق وحلب وطرابلس، حيث تبعت شرقي الأردن لولاية دمشق وقد حكم العثمانيون شرقي الأردن اسمياً ولم يكن لهم اهتمام إلا بقافلة الحج الشامي التي كانت تعبر الأراضي الأردنية حينها.

وهنا يمكن القول أن موقع أم زويتينة وغيرها من المواقع التي توجد في منطقة عمان الحالية وما يعرف بمنطقة البلقاء تاريخياً قد هُجرت من السكان بشكل تدريجي بناءً على ظروف وأحداث سياسية جاءت مع نهاية الفترة المملوكية وبداية العصر العثماني، أدت هذه الأحداث إلى تراجع في عدد السكان ثم إلى هجر للمنطقة بأكملها، ومن المعتقد أيضاً حدوث تغير ديموغرافي للسكان أدى إلى الاستغناء عن حياة الاستقرار والتحول إلى حياة البداوة وذلك بسبب انهيار النظام الأمني، ولجأ السكان حينها إلى التنظيم القبلي

والذي هو في الحقيقة تنظيم عسكري يساعد على توفير حماية أكبر لأفراد القبيلة وكذلك يوفر قدرة وسهولة في التنقل أي قدرة على الكر والفر. وهنا نتساءل هل كان لتلك الفترة تأثير على تكوينات المجتمع العشائري الأردني الحالي؟

كذلك التراجع الذي شهدته منطقة عمان البلقاء مع نهاية العصر المملوكي ودخول الدولة المملوكية في صراع مع الدولة العثمانية الناشئة في بداية القرن السادس عشر كان له أكبر الأثر على هجر السكان للمنطقة. هنا يجب أن نتساءل كيف حدثت هذه الهجرة؟ وإلى أين؟ وهل كان لهذه الظروف السياسية دور في سيطرة العشائر البدوية على المنطقة وتحول السكان إلى النمط غير المستقر (البداوة) للحفاظ على التكوينات الاجتماعية التي كانت سائدة قبل الانهيار الأمني والصراعات السياسية؟

وبالعودة إلى بعض أسماء العائلات لبعض الدارسين والمنتسبين لمدرسة حسبان المملوكية يمكن القول أن هذه الأسماء تشكل عدداً كبيراً من أسماء العشائر الأردنية الحالية وهذا يدعم الاعتقاد بالتحول السكاني للنمط البدوي وهذا لا يمنع كذلك الحديث عن دخول بعض العشائر من شمال الجزيرة العربية والاستقرار في منطقة شرق الأردن خلال الفترة العثمانية (غوانمة ١٩٧٩).

كذلك إن هجر السكان لهذه المنطقة ليس الأول حيث شهدت المنطقة هجراً في الاستيطان خلال نهاية العصر العباسي.

المراجع

البخيت، محمد عدنان

١٩٧٦ **مملكة الكرك في العهد المملوكي**. المملكة الأردنية الهاشمية.

البخيت، محمد عدنان ومرزوق، محمد يونس

١٩٩٢ **بحوث في تاريخ بلاد الشام في العصر العثماني**. عمان، مطبعة الجامعة الأردنية

الحسو، أحمد عبدالله

٢٠٠٤ **تاريخ الكرك عبر العصور الإسلامية**. عمان، منشورات وزارة الثقافة.

غوانمة، يوسف درويش

١٩٧٩ **تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى (القسم الحضاري)**. عمان، وزارة الثقافة والشباب.

١٩٧٩ **تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى (القسم السياسي)**. عمان، وزارة الثقافة والشباب.

المومني، سعد

١٩٨٨ **القلاع الإسلامية في الأردن (الفترة الأيوبية المملوكية)**. عمان، دار البشير للنشر والتوزيع.

نصير، ركاد

٢٠١٠ **المعاني اللغوية لأسماء المدن والقرى وأحواضها في المملكة الأردنية الهاشمية**. عمان، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع.